المصدر: الوطن السعودى
التاريخ : ٩ ابريل ٢٠٠٣

الاقتحام الأمريكي لبغداد ليس فيه شيء من الإنسانية أو الشرف

بغداد: روبرت فيسك

بدأ الأمر بسلسلة من الاهتزازات العنيفة، تلاها صوت انفجار ساحق هز غرفتي بالفعل. وتكرر صوت الانفجارات المدوية مرات ومرات. واستلقيت على السرير محاولاً أن أفهم السبب. كان الأمر شبيهاً باللحظة المخيفة في فيلم "جواريك بارك" (حديقة الديناصورات) عندما سمع السياح أصوات أقدام الديناصور للمرة الأولى، الذي كان يشبه صوت الرعد الذي يعلو شيئاً فشيئاً، ويجعل السامع يخاف أكثر فأكثر. ومن خلال نافذتي على الضفة الشرقية لنهر دجلة، رأيت بطارية مضادة للطائرات تابعة للجيش العراقي وهي تطلق قذائفها من على سطح منزل من أربعة طوابق على بعد ميل واحد، وكانت تطلق نيرانها مباشرة على شيء في الضفة الأخرى للنهر. وانطلق الصوت المدوي مرة أخرى منها، وكان من القوة بحيث إن صافرات إنذار السرقة انطلقت في آلاف السيارات على طول ضفة النهر.

ولم أتمكن من معرفة ما كان قد حدث إلى أن وقفت على إحدى الطرقات في الفجر. لم أكن قد سمعت صوت المدفعية الأمريكية منذ حرب الخليج الثانية في 1991. وهناك، على بعد عدة مئات من الأمتار فقط على الطرف الآخر من نهر دجلة، رأيت تلك المدافع، بدت في البداية وكأنها دودة طويلة مدرعة، تتوقف وتبدأ من جديد، وكأنها كانت صغيرة غريبة جاءت لتستكشف أرضاً غريبة بحثاً عن الماء.

وكان على المرء أن يستمر في النظر إلى تلك الديدان حتى يتمكن من تفسير الواقع، ويلاحظ أن كلاً من تلك المخلوقات كان عربة برادلي مقاتلة، وأن ذيلها لم يكن إلا مجموعة من مشاة البحرية الأمريكيين وهم يختبئون خلفها للحماية، ويتقدمون في كل مرة تتحرك فيها العربة التي يحتمون خلفها لتأخذ موقعاً جديداً على نهر دجلة.

كانت هناك دفعات من إطلاق النار من قبل الأمريكيين، ومجموعة من القنابل الصاروخية ونفحات من الدخان الأبيض من الجنود والميليشيا العراقية الذين كانوا يتحصنون بخنادقهم على نفس ضفة النهر على مسافة بعيدة نسبياً باتجاه الجنوب، كأن الأمر بتلك السرعة والبساطة والرهبة.

بالفعل، كان المشهد غير عادي وغير متوقع – على الرغم من كل وعود جورج بوش ومباهاة البنتاجون – حتى أن المرء نسي إلى حد ما السابقة التي يشكلها هذا العمل لمستقبل الشرق الأوسط بالكامل. وبين فرقعة إطلاق النار والطلقات المخططة المضيئة عبر النهر وحرائق النفط الهائلة التي أشعلها العراقيون لتعطيهم غطاء للانسحاب، كان على المرء أن ينظر باتجاه آخر – إلى الجسور الضخمة فوق النهر التي تقع على شمال تلك المنطقة، وإلى المياه الخضراء الشاحبة لذلك النهر العريق – ليلاحظ أن جيشاً غربياً في حملة أخلاقية قد شق طريقه إلى قلب مدينة عربية لأول مرة منذ أن دخل الجنرال اللنبي إلى القدس عام 1918. ولكن اللنبي دخل القدس على قدميه، احتراماً لمسقط رأس السيد المسيح، واقتحام الجيش الأمريكي لبغداد يوم الاثنين الماضي كان خالياً من التواضع والشرف.

اقتحم مشاة البحرية الأمريكية والقوات الخاصة المنتشرون على طول الضفة الغربية للنهر أكبر قصور صدام حسين، وصوروا الحمامات فيه واستراحوا على أعشابه قبل أن يتحركوا صوب فندق الرشيد ويبدأوا بإطلاق النار على الجنود والمدنيين العراقيين. ونقل مئات الرجال والنساء والأطفال العراقيين إلى مستشفيات بغداد وهم يعانون من جراح أصيبوا بها خلال الساعات التي تلت ذلك، وقد تعرضوا لإطلاق نار أو شظايا أو قنابل عنقودية. كان باستطاعتنا بالفعل رؤية طائرات "إيه 10" ذات المحركين الأمريكية وهي تطلق قذائفها من اليورانيوم المنضب على شاطئ النهر البعيد.

ومن الضفة الشرقية، راقبت مشاة البحرية يركضون نحو خندق وهم يعلقون بنادقهم على أكتافهم بحثا عن جنود عراقيين. لكن أعداءهم استمروا بإطلاق النار من الشقق الطينية الواقعة إلى الجنوب حتى رأيتهم، واحداً تلو الآخر، يهربون لينجوا بحياتهم. واندفع العراقيون خارجين من خنادقهم وسط القصف الأمريكي وبدأوا يركضون برعب إلى جانب المياه، وقد احتفظ معظمهم ببنادقهم، واكتفى البعض بالسير بسبب تعبهم، ورمى البعض بأنفسهم في نهر دجلة الذي غطت مياهه ركبهم وحتى رقابهم أحياناً.

وخرج ثلاثة جنود من الخندق وهم يرفعون

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

أيديهم في الهواء أمام مجموعة من جنود مشاة البحرية الأمريكيين، لكن مجموعة أخرى استمرت في القتال، واستمر دوي إطلاق المدافع الأمريكية لأكثر من ساعة. وبعد ذلك عادت طائرات "إيه 10" الأمريكية مرة أخرى، وكذلك جاءت طائرة "إف18" المقاتلة القاذفة وأطلقت نيرانها الكثيفة على طول الخنادق. وبعد ذلك توقف إطلاق النار. وبدأ أن بغداد ستسقط خلال ساعات، ولكن النهار مضى واتسم بمزيج مجنون من الحياة الطبيعية والموت والمهازل التي تتميز بها الحروب. حتى في الوقت الذي كان فيه الأمريكيون يشقون طريقهم نحو الشمال، وكانت طائرات "إف 18" تعود لتقصف ضفة النهر، حضر وزير الإعلام العراقي لعقد مؤتمر صحفي على سطح فندق فلسطين، والذي لا يبعد أكثر من نصف ميل عن ساحة المعركة.

وبينما كانت القذائف تنفجر على يساره وصوت القاذفات الأمريكية النفاثة يشق الهواء، أعلن محمد الصحاف أمام حوالي مئة صحفي أن الأمر كله لم يكن أكثر من مناورة إعلامية، وأن الأمريكيين لم يعودوا يسيطرون على مطار بغداد، وأن على الصحفيين أن "يدققوا في الحقائق ويعيدوا التدقيق فيها – هذا كل ما أطلب منكم أن تفعلوه".

ومن حسن الحظ أن حرائق النفط وانفجارات القنابل والدخان الكثيف حجبت في هذا الوقت الضفة الغربية للنهر، حتى إن التدقيق في الحقائق لم يعد ممكناً تحقيقه من خلال النظر خلف ظهر السيد محمد الصحاف. ما أراد العالم أن يعرفه بالطبع هو هل كانت بغداد على وشك السقوط، وهل ستستسلم الحكومة العراقية إذا حدث ذلك؟ وأكثر الأسئلة إلحاحاً – أين صدام حسين؟ لكن السيد الصحاف أمضى وقته في توجيه النقد لقناة "الجزيرة" بسبب انحيازها لصالح الولايات المتحدة، وشجب القوات الأمريكية بسبب استخدامهم صالات قصر صدام حسين من أجل دعاية رخيصة. وصاح الصحاف قائلاً: "سوف يدفن الأمريكيون هنا. لا تصدقوا هؤلاء الغزاة. سوف نهزمهم".

في الأسبوع الماضي فقط قال لنا الصحاف إن الأمريكيين سيحفرون قبورهم في الصحراء. والآن تحول موقع دفنهم إلى المدينة. وكلما استطرد الصحاف في الكلام، زادت رغبة المرء في مقاطعته للقول "ولكن انتظر سعادة الوزير، انظر من فوق كتفك الأيمن". ولكن بالطبع، لا تسير الأمور بهذه الطريقة. واقترح علينا أن نقوم بجولة حول المدينة.

وهكذا فعلت. كانت حافلات النقل العام ذات الطابقين ما زالت تعمل، وإذا كانت المحلات مقفلة، فإن الباعة على الأرصفة كانوا يمارسون نشاطهم، وقرب شارع ياسر عرفات، كانت مجموعات من الرجال قد تجمعوا في المقاهي الرخيصة للحديث عن الحرب. ذهبت لشراء بعض الفواكه، ولم يكن صاحب المحل قد انتهى من عد نقودي – والتي بلغت 11,500 دينار – عندما عبرت طائرة أمريكية تطير على ارتفاع منخفض فوق الشارع وألقت حمولتها على بعد ألف متر تقريباً وأحدث الانفجار تغييراً فظيعاً في ضغط الهواء في آذاننا. ولكن كل زاوية في الشارع كانت تحوي مجموعة من رجال الميليشيا، وعندما وصلت إلى جانب وزارة الخارجية على الضفة الغربية للنهر في أعلى المنطقة التي يوجد فيها رجال مشاة البحرية الأمريكية، كانت مجموعة من طاقم المدفعية العراقية تطلق نيران مدفع 120 مم باتجاه الأمريكيين في وسط طريق مزدوج، وكانت فوهة المدفع تتوهج وسط الضباب الرمادي الذي كان يغطي سماء بغداد.

وخلال ساعة ونصف الساعة، كان الأمريكيون قد تحركوا إلى الجنوب بجانب النهر، وكان هناك خطورة في أن يستولوا على وزارة الإعلام القديمة. خارج فندق الرشيد، فتحوا النار على المدنيين ورجال الميليشيا على حد سواء، وأطلقوا النار على راكب دراجة نارية كان يمر في الشارع، كما صوبوا نيرانهم باتجاه مصور تابع لوكالة رويترز، لكنه تمكن من النجاة بعد أن أصيبت سيارته فقط بطلقات نارية. وامتلأت مستشفيات بغداد بالجرحى، وكان الكثير منهم نساء وأطفالاً أصابتهم شظايا قنابل عنقودية. وعند الغروب، كان الأمريكيون يستخدمون طائرات "إف 18" للدعم الجوي لجنود مشاة البحرية الأمريكية، بعد أن تأكدوا من أنهم قضوا على المدافع المضادة للطائرات، حتى إنه كان بالإمكان رؤية الطائرات تتجول في السماء بصورة مزدوجة فوق وسط

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

بغداد، ثم تنعطف بهدوء جنوباً وغرباً بينما يستمر إطلاق القذائف عبر النهر.

وبعد الظهر، حدد الأمريكيون موقع مستودع للذخيرة على الضفة الغربية للنهر ليس بعيداً عن القصر الجمهوري واحد من ثلاثة احتلوها يوم أول من أمس ونسفوا المستودع مما سبب اندلاع حريق هائل ارتفاعه عدة مئات من الأقدام.

وخلال ساعات بعد ذلك، كان بالإمكان سماع أصوات القذائف، وكانت أحياناً تنفجر في السماء. وحتى عندما كانوا يفعلون ذلك – وكان واضحاً أنهم كانوا يريدون إثارة صدام ووزرائه – قام الأمريكيون ببث صور حية لتجوالهم في القصر الجمهوري على ضفاف نهر دجلة، وعرضوا شريط فيديو أظهر مقعد الحمام في التواليت الرئاسي، والحمام المغطى بالرخام وصنابير المياه المطلية بالذهب، وصور جنود من القوات الخاصة وهم يأخذون حمام شمس على ساحات الأعشاب الخضراء حول القصر. مع إنه لم تكن هناك شمس.

هل كان هذا ما يسمونه ''غني بالتاريخ''؟ قام الجنرال ستانلي مود بغزو العراق عام 1917م واحتل بغداد.

وأعاد البريطانيون نفس العرض عام 1941م عندما قررت حكومة رشيد علي أن تدعم ألمانيا النازية. و''حرر'' البريطانيون والأستراليون دمشق من الأتراك عام 1918م. واحتل الإسرائيليون بيروت عام 1982م وندموا على ذلك فيما بعد. والآن، تتحرك الجيوش الأمريكية والبريطانية، بثبات إلى العاصمة العربية التي تقع في أقصى شمال شرق العواصم العربية لتسيطر على أراض على تخوم إيران وتركيا وسوريا والأردن والمملكة العربية السعودية.

وبينما حل الظلام يوم الاثنين الماضي، مررت بمتراس أسمنتي في الطرف الشرقي من جسر الرشيد فوق نهر دجلة. وكان المدافعون العراقيون الثلاثة عن الجسر قد أسندوا قاذفات صواريخهم بترتيب على طول حاجز الجسر. وكانت هناك إشاعات بأن مئات الدبابات والعربات المدرعة الأمريكية تتدفق باتجاه نهر دجلة من جنوب غرب بغداد وهؤلاء العراقيون الثلاثة – اثنان من ميليشيا البعث وشرطي – كانوا يقفون هناك جاهزين للدفاع عن الضفة الشرقية ضد أعظم جيش عرفه التاريخ الإنساني. وفكرت بأن ذلك وحده كان يعبر عن شجاعة ويأس العرب في وقت واحد.

(خدمة ''الأندبندنت'' – خاص ''الوطن)

www.ethraadl.com